باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان ولكن انهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع للمقتطف ويراعى في الادراج وضعه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيما كان المعترف باغلاطه اعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستحق على المطولة

نجبة دمشق

وصلتنا هذه القصيدة الفاخرة مع خطبة تاريخية نفيسة موضوعها « الرازي » بعد ما طبعت اكثر ملازم المقتطف فرأينا ان تثبت القصيدة هنا مرجئين نشر الخطبة الى الجزء الثاني

أأليك ام لله كان مآبي دار العلوم وكعبة الآداب
أأليك ام لله كان مآبي امّ المشارق منزل الاحباب
بك زُجَّ بولس في السجون لعهد — حارثك الكبير وفرَّ بعد عذاب
واليك ساق ابو عبيدة فيلقاً للفتح فيه خُلَّص الاعرابِ
فلآل عيسى فيك ذكرى ذكرها حيٌّ مداه نهاية الاحقابِ
ولآل احمد انت غرة فتحهم من عهد نجمة قطبه الخطّابِ
الامتان فداك ان نفذ القضا بمكارم كلح الوجوه صعابِ
اخلاص كلٌّ منهما لك كافل وجد الكنيسة فيك والمحرابِ

***

لله غوطتك الفريدة انها شتى الجمائر وقصد كل طلابِ
وشي الزمرّد في اعالي تلها عندٌ فوق الباطح وهضابِ
وثيرٌ ياقوت الثمار اصوله تسقى بفيض لجينها الذوّابِ
يردى ومن يذكر عصابة جلق يذكر بي صيابة انجابِ
يردى يصفق منذ حسّان ومن يزل به ينزل على الترحابِ

يردى امية انشأت في ارضه للعرب عرشاً مسطرٌ جنابِ
والفخر والامجاد في شرفاته والدهر بعض عبيده بالبابِ
غنى ابن عائشة والشدَ معبد فيه بذكر بثينة ورباب
دالوا. ليذكر كل ذي لبث بان المجدَ ليس بقينةٍ وربابِ

***

ما غيبوا في الشرق حتى اطلعوا في الغربِ ما لا يبتلى بنيابِ
عصر المعارف والفنون ولامح — الآثار والتأليف والآدابِ
لله آثار هناك مجيدة بل اي انقاضٍ واي خرابِ
لتكاد تسمع ابن رشدٍ مفتياً فيها امام جماعة الطلابِ
وتكاد تسمع ابن زهرٍ شافياً يحدو اليه العيس كلَّ مصابِ
وترى ابا العباس في سباره عين البصير واصبع المرتابِ
وتكاد تسمع في زواياها صدى انشاد واحد عصره زرياب
زرياب فاتن ارضها وسمائها شيخ الصناعة سيّد الاطرابِ
وتكاد تسمع ابن بطار دقـــــين دمشق يروي قصة الاعشابِ

***

ارثا امية معرض بكليها يدعو الى الاكبارِ والاعجابِ
قد اثبتا صدق الوداد وجددا بين البنين وشائج الانسابِ
سمعاً امية اندلوس وشاهدوا في الشرق ما يقضي بكل عجابِ
عادت نضارة ملككم بمعارفٍ قد جددت للعلم اي شبابِ
بعثت نضارة ملككم بصناعةٍ قد جددت للعصر اي اهابِ
في عرضِ معرضها نشائس جمّةٍ اخاذة بمجامع الالبابِ
يهتزُّ فوق حريرها متلمعاً موج وما هو فيه غير سرابِ
ان المعارف ركن كل تمدنٍ والسدُّ فيه دون كل ثبابِ
ان الصناعة ركن كل تمدُّنٍ والسدُّ فيه دون كل يبابِ
ان تختلف احزابكم في مأزقٍ فعلى الصناعة كتلة الاحزابِ
او تفترق نوابكم في مشكلٍ فعلى المعارف وحدة النوابِ

***

أأكابر الاعيان فتية جلّقٍ واماثل الادباء والكتابِ

اوليتموني من جميل صنيعكم ما ليس يحصي حاسب بحساب
آثار جدّكم سناها ساطع ما بين باب بريدكم والجابي

***

لا زلت جلق بيت كل كريمة للشام ركناً ثابت الاسباب
وكفاك فخراً اذ نزيلك يوسف وثراك فيه مدفن الفارابي

الدكتور
لوريا كلية الطب باريس
يوسف فرج حرير

من المصيب

للاستاذ بندلي جوزي

لا يسعني الا ان أشكر للكاتب عبد اللطيف الطيباوي صاحب الردّ على بعض افكار ابديتها في مقالتي الاولى عن الخراج والجزية في الاسلام حسن ادبه ولطف عبارته ووقوفه في ردّه عند النقد العلمي واساسه « عن القراءة في القلوب » وسوء الظن الى غير ذلك مما لا علاقة له بالنقد العلمي الصحيح. واني اوكد لحضرته باني لا اقصد من كل ما اكتبه الا الحقيقة على قدر ما تتكشف لي وتساعدني معارفي وحالة العلم على ادراكها. واني اكره الجدل الباطل ولا اتعامى عن الحقيقة ان بدت لي في ابحاث غيري وليس لدي من الوقت ما اصرفه في سبيله وهذا سبب اساكي عن الرد على اكثر ما نشرته مجلاتنا من النقد او التقريظ السطحي لكتابي « من تاريخ الحركات الاشتراكية في الاسلام » وهذا ايضاً ما يدفعني الآن الى الرد على بعض اعتراضات الكاتب المذكور

يسمح لي الكاتب الفاضل قبل ان انظر في اعتراضه الجوهري الوحيد ان ألفت نظره الى بعض نقط ثانوية خارجة عن الموضوع الخلافي بيننا وبعيدة عن الحقيقة. من ذلك انهُ ينسب الي التطرّف في التفسير للتاريخ الاقتصادي وهذا غير صحيح والاّ لحصرت كل اسباب سقوط الدولة العربية في سوء سياستها الاقتصادية. واما قلت ان هذه السياسة كانت « من اعظم اسباب سقوطها » وفي ذلك تنبيه الى ان هذا السقوط عوامل اخرى لم تكن بي حاجة الى ذكرها. وهنا يجدر بي ان اقول لحضرة المنتقد ان التفسير الاقتصادي للتاريخ هو اليوم التفسير الشائع في كل العالم المتمدن وبين العلماء على الاخص.

ومنها قوله بعد ان اورد عباراتي عن فحوى القرآن « بان الشطر الاول ليس بالجديد

عند الواقفين على آراء المستشرقين » وهو ايضاً غير صحيح لان اكثر المستشرقين على خلاف ذلك أي انهم ينظرون الى القرآن نظرهم الى كتاب احكام ومتن مفصّلة — وانا اعدّه — الا بضع سور منه — كتاب مبادىء واصول عامة وفي ذلك من الدفاع عن روح القرآن ومقامه ما لو فكر فيه حضرة المنتقد لما قال ان في عبارتي « من الغلوّ والبعد عن البحث العلمي المدعوم بالبراهين ما يجعلها غير جديرة بالمناقشة »

***

ومنها سؤاله كيف جوّزت لنفسي ان اقول ان «النبي العربي لم يفكر قط في بناء مملكة ضخمة» الخ وان اجزم جزماً باتّاً في مسئلة خطيرة مثل هذه دون بحث او مناقشة » وجوابي على ذلك اني لم اذكر هذا الموضوع الا عرضاً في مقدمة مقالتي لانه بعيد جدًّا عن مضمون المقالة كما لا يخفى على القارئ ولم يكن بي حاجة الى الخوض فيه وايراد آراء العلماء لان في ذلك خروجاً عن موضوع بحثي ولا لي الآن رغبة في ذلك لاني أخشى ان لا تفاهم مع صاحب الردّ فانا احاول ان ابني الحوادث التاريخية على نواميس طبيعية يقبلها العقل وحضرته يميل الى ما وراء الطبيعي كما يؤخذ من بعض عباراته. وليسمح لي ان احيله اذا احب التوسّع في هذا الموضوع والوقوف على آراء اشهر المستشرقين فيه الى مؤلفات الامير كايتاني *Annali de Islam 725* والاساتذة *Grimm* « محمد » (جزء اول) و*Wellhausen* « الدولة العربية وسقوطها » و*Goldziher* « ابحاث اسلامية » (ج اول ص ٧٣ —) و*Lammens* « معاوية » (ص ٤٣٤ —) وغيرهم. ويعذرني ان اقصر كلامي على بعض ملاحظات تتعلق باسلوب البحث اكثر منها بموضوعه

قال صاحب الردّ « ولعله (الضمير يرجع الي) تابع في ذلك السير *W. Muir* والبرنس *Caetani* — وهنا ذكر آراء الكاتبين المذكورين (لكنه لم يذكر اسما كتبهما ولا صفحاتها) وختم عبارته بقوله « فاذا كان الاستاذ قد جاراهما في هذا الزعم او انه توصل الى النتيجة ذاتها بنفسه فمن الواجب العلمي ان يذكر ازاء هذا الرأي عدة آراء تناقضه فذكر على سبيل المثال منها آراء الدكتور غولدزيهر والسير ارنولد » فاقول لحضرته اني اعتدت اذا اقتبست رأياً او عبارة ان اذكر مصدرها بالتدقيق كما يرى القارئ في جميع كتبي ومقالاتي العلمية وانه ليسرني جدًّا ان فكري الذي يعترض عليه حضرة عبد اللطيف الطياوي جاء موافقاً لآراء الكتبة المذكورين آنفاً وبينهم غولدزيهر ايضاً الذي لا اعلم لماذا استثناه حضرة المنتقد من جملة علماء الفرقة الاولى الذين ينكرون على النبي العربي رغبته او تفكيره في بناء مملكة واسعة الاطراف تشمل العالم القديم المعروف فقد ذكر العالم الاخير في كتابه *Mohammed*

Studien (ج ١ ص ٧٣ ٧٤) وكتاب آخر « قراآت في الاسلام » ص ٣٤ من الترجمة الروسية الباب الثاني ان المفكر الذي يدافع السيد الطباوي اختلقه الاعاجم او على الاقل بالغوا فيه وساعدوا على نشره بين الناس ليساووا بينهم وبين العرب وقد تناولته الشعوبية ايضاً واعتمد عليه في مقاومتها للعصبية العربية وسيادة العرب المطلقة. امّا *T. W. Arnold* فاني لم اقرأ له شيئاً ولا ارشدني صاحب الرد الى كتاب له معلوم لاطالعه ولا هو ذكر صفحات الكتاب . . .

***

وبعد هذا التمهيد وبعد ان حذّرني من سوء عاقبة التاسي ونبّه الى ان باب البحث « مفتوح على مصراعيه لمن يود ان يدرس بانصاف وتجرد عن كل غرض » اخذ يبني اعتراضه الجوهري الوحيد على فكري المذكور ويؤيده بالبراهين التاريخية وغيرها فقال : « وفي معتقدنا ان القرآن اصدق نص تاريخي يمكن الاعتماد عليه كل الاعتماد عند البحث في حياة الرسول » وهذا الاعتقاد هو اعتقادي ايضاً واعتقاد اكثر مشاهير المستشرقين في الوقت الحاضر . ولو وقف حضرة المنتقد عند القرآن وحده ولم يعدُه الى الحديث الذي لم يعد احد اليوم يعتمد عليه — بعد ابحاث غولدزيهر ولامنس — عند البحث في حياة الرسول لكانت حجته اقوى لأن الحديث يناقض بعضه بعضاً وأكثرهُ كما هو معلوم موضوع لغايات جدلية او مذهبية ناهيك عن ان اكثر الأحاديث التي ذكرها حضرة صاحب الرّد هي من المرسل وأسانيدها ضعيفة او مشكوك فيها كأكثر الأحاديث التي تعزى الى الموالي وأبي هريرة وابن العباس

فاذا اهملنا هذا المصدر المشكوك فيه بقي لدينا القرآن والشواهد التاريخية والأول اهم في بيان افكار النبي والدلالة على ما كان يرمي اليه من الأغراض السياسية وغيرها. ومن يطالع الكتاب العزيز « بانصاف وتجرد عن كل غرض » ويمعن النظر في الآيات التي ذكرها صاحب الرد ويقابلها على غيرها ثم يراجع بعض التفاسير القديمة لا يسعهُ الاّ ان يؤمّن على ما قلته في مقدمة مقالتي عرضاً من ان النبي لم يفكر قط في بناء مملكة واسعة كمملكة اسكندر والرومان الخ وان ابعد ما كان يرمي اليه ان تنتشر دعوته بين الأمة العربية وان تتوحّد هذه الأمة سياسيًّا ودينيًّا واداريًّا ولا يقدح في ذلك ما جاء في بعض الآيات من العبارات المعمّمة في الظاهر للدعوة كقوله « وما ارسلناك الاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون » او قوله « وما ارسلناك الاّ رحمة للعالمين » لأن المراد هنا « بالعالمين » « وبالناس كافة » العرب فقط كما يظهر من

مقابلة هذه الآيات على غيرها من الآيات التي بيّن فيها النبي نظره الأساسي الى دعوته وهو انهُ بُعث للعرب خاصةً وان كتابه عربي مبين وان الله بعث ويبعث الى كل امة رسلاً وانبياء من بينها حتى لا تكون لها حجة يوم القيامة الى غير ذلك مما بسطناهُ في مقالة خصوصية في هذا الموضوع نشرناها سنة ١٩٠٧ باللغة الروسية

ولكن هب ان نظرية النبي هذه قد تطورت مع الزمن وتحت تأثير ما احرزه من النجاح وهو ما لا ينكرهُ اليوم احد وانهُ صار قبل وفاته يدعو « الناس كافة » الى الدخول في الاسلام افينتج يا ترى من هذا انهُ كان ينوي ايضاً ان يشيد مملكة ضخمة تضم بين اضلاعها العالم القديم كله و« ان لنشر الدين . . كان يتلوه عادة ملك سياسي لا صلة مباشرة له بالدين » كما يحاول ان يقنعنا صاحب الرد؟ نعم قد يكون ذلك لو سلمنا ان الاسلام لم يكن لينتشر الاَّ بالجهاد وان دعوة النبي كانت قائمة عليهِ فقط وهو ما لا يقول بهِ اليوم احد من كتبة المسلمين حتى ولا صاحب الرد الذي أحس بغلطهِ فزاد على الجهاد « الموعظة الحسنة وغيرها من ضروب الدعوة » ثم فسر كلة جهاد بمعناها الاصلي لا معناها الاصطلاحي الفقهي كما يستفاد من عبارته « ان النبي كان يرى من الواجب عليهِ كرسول امين لله ان يجاهد في سبيله لنشر الدين بين جميع الناس »

***

ان هذه الاعتبارات وان كثيراً غيرها مما لا يتسع المقام لذكرها تجعل آيات القرآن المذكورة غير حاسمة في موضوع الخلاف وكأني بصاحب الرد قد انتبه لذلك فعمد الى التاريخ آملاً ان يجد فيهِ ما يؤيد نظريته الا انهُ لم يوفق — كما يظهر لي — الى ذلك لان ما استشهد بهِ من الحوادث والاخبار التاريخية لا يفي بالغرض كما يرى لما يلي .

قال حضرتهُ « واما التاريخ فيثبت ما جاء بالقرآن والحديث فالاصول؟ العربية تجمع على ان النبي انفذ جيشاً تحت قيادة زيد بن حارثة الى مؤتة وهي تجمع كذلك على ان النبي قاد بنفسهِ جيشاً الى تبوك والظاهر أن الرسول كان يمهد السبيل لفتح عام لولا ان قبضهُ الله الى جواره » نعم ان هذه الاخبار صحيحة ونحن اول من آمن بها وصدّق الاَّ اننا لا نستطيع ان نستنتج منها ما استنتجهُ صاحب الرد لا تا نعلم علم اليقين انهُ لم تكن بين الغزوات المذكورة وبين الفتوحات العظيمة التي قام بها خلفاء النبي بعد وفاتهِ صلة مباشرة لان الغرض منها كما يقول كاتباني كان امّا النهب (غزوة مؤتة سنة ٨ هـ) واما الدفاع (غزوة تبوك سنة ٩ هـ واما الاثأر (غزوة اسامة سنة ١١ هـ) لا نشر الدين ولا « لتمهيد السبيل لفتح عام »

« كما يظهر » لصاحب الرد والا لو كان الغرض منها نشر الدين فقط او تمهيد السبيل لفتح عام لذكره المؤرخون واصحاب السير

***

واضعف من ذلك في الدلالة على صحة نظرية صاحب الرد برهانهُ التاريخي الثاني وهو قوله «ان النبي ارسل الى كسرى وقيصر والمقوقس والحارث امير غسّان — ملوك العالم المعهود حينئذٍ وحكامهُ — يدعوهم فيها الى الاسلام » اذ المحقق اليوم عند مشاهير المستشرقين الذين طرقوا هذا الموضوع ان هذه الارساليات من وضع كتبة الدور الاول لخلافة بني العباس بدليل ما فيها من التناقض والاغلاط التاريخية والسياسية والمنطقية وغيرها مما يجده القارئ المتزيد في كتاب الامير كايتاني (ص ٧٢٥—٧٣٧) والاستاذ *Grimm* المذكور سابقاً يؤيد ذلك ان ابن اسحاق صاحب اول واصدق سيرة للنبي لم يذكر هذه الارساليات كما يستفاد من كلام ابن هشام الذي غير وحذف ما شاءت اهواؤه من تأليف سلفه فانهُ لما ذكر الارساليات لم يستشهد بابن اسحاق كعادته بل ساق الكلام عن نفسه وفوق ذلك فان الارساليات — ان سلّمنا جدلاً أن النبي ارسلها عام ٦ للهجرة وهو في الحديبية اي قبل ان يوحد الامة العربية وينشر دعوته ولو في القسم الشمالي من الجزيرة وبعد ما لقيه من ابي سفيان والملأ المكي من الكيد والمقاومة وما اصابه وقتئذٍ من الفشل الذي اضطر معهُ ان يعود الى المدينة ولم يقض واصحابه شعائر الحج — لا تدل الاّ على شيء واحد وهو أن النبي اخذ من ذلك الوقت يفكر في نشر دينه بين الامم المجاورة لبلاده بالاقناع والموعظة الحسنة لا في جمع هذه الامم تحت لوائه الابيض وتشييد امبراطورية ضخمة كما يريد صاحب الرد . على اني ارجح مع المستشرق *Grimm* ان فكرة انشاء دين جديد عالمي « للانس والجن » لا تظهر الا في العصر الاول للهجرة اي بعد الفتوحات الكبيرة التي فتحها بنو امية . فان صح هذا الرأي او بالاحرى هذا الافتراض كان ظهور الدعوة الدينية تابعاً لظهور الامبراطورية العربية لا سابقاً لها او بعبارة اخرى ان الفتوحات الواسعة التي قام بها العرب في العصر الاول للاسلام هي التي اوحت هذه الفكرة لا ان الحروب . . . التي هب الخلفاء الى اثارتها على الامبراطوريتين القديمتين كانت من مظاهر هذه الدعوة » كما يرى صاحب الرد على اننا لا نبت الآن في هذه المسألة تاركين البحث فيها الى فرصة اخرى اذا حملنا على ذلك

باكو الاستاذ ب . جوزى